

المسؤولية والتعالى الدينى فى فلسفة

«ليفيناس»

أ. بلعز نورالدين / جامعة تلمسان

يقول جان هالبريني عن ايمانويل ليفيناس:

(انه لمن الصعب تلخيص فلسفة ليفيناس وتأطيرها حيث كان دائم الرفض لمثل هاته التقسيمات والانتماءات انه فيلسوف الغيرية ، الأخلاق ، التحدي ، المشاغبة الفكرية ، الجرأة ، الروحانية الإنسانية ، المسؤولية)

يشهد الفكر الغربى المعاصر فى الوقت الراهن عودة الى الفلسفة الروحانية التى ينفرد به مفكر الايتيكا النظرية بامتياز وهو الفيلسوف الفرنسى ايمانويل ليفيناس (1906-1996) بالنظر إلى نمو تيارات فكرية جديدة بين مؤيد ومعارض لفكرة الاعتراف بالآخر والجدل الأخلاقي القائم حوله والذي يحمل جوانبا سياسية ودينية بحيث تعددت الرؤى واختلفت مشاربها ومذاهبها لكن الوجهة التى ينحوها ليفيناس تدخل فى نطاق هاته التصورات وتخرج عن التصنيفات والانساق الفلسفية لأنه شخص لنا فكرة جوهرية ذات أبعاد وحدود لاهي مدرسية ولاهي نسقيه هي فكرة المسؤولية la responsabilité ضمن بوثقة من المفاهيم التى نحتمها (سوف نأتي على ذكرها لاحقا) ورغم عدم استقطاب هذه الفلسفة ذات التوجه الدينى والسياسى باهتمام كبير فى الاوساط العربية والمعاهد الجامعية لاعتبارات عقائدية واهية إلا أننا اجتهدنا ولو بقدر قليل من اجل التعريف بهذا التراث الفلسفى المتغيب عندنا والحاضر بقوة فى الفكر الغربى المعاصر. ولطالما أشير وندد بظاهرة تضخم المصادر باللغة الأجنبية التى تسود حاليا معظم الجامعات العربية وهذا يعود إلى عدم القدرة على ترجمة هذه المصادر والكتب الأصلية خاصة لهذا الفيلسوف بحيث ولا مصدر تم ترجمته لحد الساعة .

ولهذا الغرض ارتأينا أن نلم عناية فائقة لطبيعة الإشكالية الموضوعية على عاتقنا والتى تحيل لنا معرفة منتجات ثقافية أجنبية تفترض فهما واسع المعاني وتشكل فى حد ذاتها ثراء معرفيا يدفعنا بفضول نحو قراءة أنفسنا لقراءة الاخر.

تتجه فلسفة ليفيناس اليوم نحو دراسة أكاديمية عميقة في أوروبا من طرف بعض المقربين منه والذين أعجبوا بغرابة موضوع جديد لشخصية موسوعية شهيرة متأخرة النمو مثل شخصية ليفيناس وهذه الفلسفة التي تم تهجينها عندنا تقارع مكانتها الفلسفات الراهنة في معتبرك الفكر الغربي المعاصر لتفتح أفاقا جديدة في الفكر السياسي والديني والجمالي والأخلاقي من خلال المقولات التي سلم بها ليفيناس في فلسفته مثل المسؤولية ، الشمولية ، اللانهاية ، الغيرية ، المقدس ، الوجه ، التعالي.... وهذه المقولات التي تبدو للوهلة الأولى غريبة ومعقدة و في نفس الوقت مفتاحية تجعنا نتساءل عن معنى المسؤولية وأبعادها السياسية والدينية وعلاقتها بالتعالى الديني عند هذا الفيلسوف؟ تمر اليوم ثمانية عشرة سنة على وفاة ليفيناس الذي قيل عنه الكثير بشأن كونه من اكبر فلاسفة اليهود منذ عهد «ابن ميمون» ومن القلائل الذين أثروا في الفكر المعاصر وفي مفكره حيث تدرس فلسفته حاليا في جامعة التكنولوجيا ب«كومبيان» فرنسا. Université de technologie de Compiègne. France .

وفي المدرسة الدولية للفلسفة collège international de philosophie التي يشرف على إدارتها الباحث والفيلسوف الفرنسي: فرانسوا دافيد سباح .

لكي يتسنى لنا فهم طبيعة الإشكالية ويسهل علينا تقديمها بالشكل المنطقي البسيط والمنهجي السليم ، لا بد ان نقوم بعملية تنقيب تاريخي لأهم المنطلقات الجوهرية والمرجعيات الكبرى التي نهل منها وأطرت فلسفته وخدمت فكره ورصيده المعرفي من شخصيات ، كتابات وتعاليم دينية بحيث يشكل عنصر العلاقة مع الآخر عصاره لجملة من التأسيسات التي بنى من خلالها ليفيناس تكوينه الفلسفي ، ففي الوقت الذي كان فيه هيجل المفكر الرمز للشمولية و اللانهاية و نقطة النهاية في الفلسفة الغربية، نجد ان ليفيناس قد اهتم بنقد الشمول والتركيب وارجع كل ماهو معقول إلى شمولية يلم فيها الشعور بالعالم عبر فحص تاريخ الفلسفة وهو ينم عن محاولة تركيب كلية بحيث ان هذا الفحص لا يترك ويستبعد خارجه أي شيء ويصبح على هذا النحو فكرا مطلقا ، كما تأثر ليفيناس في هذا الإطار بالمفكر اليهودي الكبير «فرانز روزنويك» (1886-1929) الذي وجد لديه نفس النقد الشمولي من خلال كتابه هيجل والدولة حيث تخطى الفلسفة الألمانية ورجع إلى الينابيع اليهودية فقد مضى من فكرة الشمولية المرتبطة بالنظر الإجمالي الفلسفي ، شطر نبضة

الحياة ذاتها وشطر فحص هذه الوقائع التي لا تنحل إلى سواها ، إلى انفجار الشمول وانفتاح درب آخر من البحث عن المعقول وبالتالي يبحث ليفيناس في منوال «روزنويك» عن نمط تجربة قصوى لا تنحل إلى سواها .

تابع ليفيناس دروس هوسرل وهيدجر الفلسفية بفريبورغ في ألمانيا حيث اخذ عن هوسرل مبادئ المنهج الفينومينولوجي بحيث يرجع الفضل إلى ليفيناس في ادخاله الفينومينولوجيا الى فرنسا لكنه لم يبق أصيلا لفكر أستاذه بل ترك بعض المسافات بينه وبين هوسرل واعاد تقويم الفينومينولوجيا ، كما عرف الجمهور الفرنسي بانطولوجيا مارتن هيدجر ثم انتقده في مسالة تقديم الوجود على الموجود ورد الاعتبار للموجود وأعجب كثيرا بمؤلف هيدجر الكينونة والزمان. وضمن اكتشاف الوجود مع هوسرل وهيدجر ، ينطلق ليفيناس من تفكيرهما تراه يقلب مذهب المحايثة الهوسرلي ويجعل من المغايرة بديلا وشرطا للموجود ولكل تجربة، انه حقا وضع مفارق ومحتوم في نظر ليفيناس لان كل موجود ووجودي بالدرجة الأولى لا يتجلى ولا يظهر بأي قيمة ومعنى إلا في فكرة الشعور بالتعالى «الترسندنتال» وهو شعور يغذيه الحضور الذي يتعذر التفكير فيه ولولا هذا الحضور لما كنت حاضرا أمام ذاتي وفي العالم وكذلك لم يكن الآخرون شيئا بالنسبة إلي عندئذ يتجلى مطلب المسؤولية فكيف رسم لنا ليفيناس معالم هذه المسؤولية انطلاقا من فكري التعالى واللانهاية ؟

يقترح ليفيناس أخلاقا للتعالي وإسهاما ميتافيزيقيا مفارقا ، ولقد ضرب المثل على فينومينولوجيا تضادالفينومينولوجيا الهوسرلية حين قال إن منطق الوصف الارجاجي يؤدي إلى جدل التفكير أي إلى تفكير ينبغي عليه أن ينكر ذاته ويتطلع إلى معرفة الوجود الخارجى (معرفة الأخر) وهذه هي المشكلة الأساسية التي تختفي وراءها فكرة المسؤولية.

وفيما يتعلق بالتعاليم الدينية التي تشبع بها ليفيناس نجده يعود الى مناهل اليهودية الثوراة والتلموذ ، ويتخذ منها بؤرة الهام وتقديس للاتيقا والتعالى الديني ، ويتضح المعنى او البعد الديني للاتيقا النظرية في ادراك الاخر ، اما التعالى الديني يفهم من تجربة المقدس وهو الله الذي يمثل العمق الديني للتجربة التي تؤسس الثوراة وتلك هي حكمة يهودية .

لما كان ليفيناس مديرا لدار المعلمين الاسرائيلين الشرقي التقى مع المفكر اليهودي م.شوشاشي الذي دعاه لتعلم وقراءة التلموذ، بحيث تمثل السنوات المتعاقبة من (1957-

1963) الى (1973-1977) بمثابة مسار التكوين الديني لليفييناس فنجدته يقدم اولى محاضراته تحت عنوان دروس تلمودية امام المثقفين اليهود في ندوات ومؤتمرات باللغة الفرنسية ، ثم يدون كتاب الحرية الصعبة ويتناول فيه الماثور والتقاليد اليهودية في شكل مقالات عن اليهودية ، خمس سنوات بعد ذلك يشهر اربع مطالعات «دراسات» تلمودية ، وبعد ذلك يبرز البعد التلمودي لكتابه انسانية الانسان الاخر ، وينهي مساره بخمس مطالعات تلمودية في كتابه Du sacré au saint

ومن المواضيع الرئيسة والحساسة التي شددت انتباه ليفيناس هي فكرة المسؤولية من منطلق انها العنصر الفاعل في الاتيقا وبعدها احدى البدايات الاولى للغرب التي لا تتلاشى تلاشيا تماما ، ويتساءل ليفيناس « هل يمكن ان يكون هناك شيء غريب مثل غرابة تجربة الخارجي بشكل مطلق متناقض في الحدود تناقض تجربة تتلقى قوانينها من الخارج Hétéronome »

ان العلاقة مع الاخر تتضمن تدخلا ياتي من الخارج يجب اذن ان يكون هناك غريب ات بالتأكيد لكن ذاهب قبل مجيئه ومطلق في تجليه وبعيدا عن ان يكون مجد الاله هو قمة التجلي الترنسندنتالي ، عبور خالص يبدو وقد تم تجاوزه.

ينبثق اذن مطلب التعالي الديني وفكرة المسؤولية انطلاقا من الاخر الذي يؤسس له نظرية ويعتبره مثل قرين الانا alter ego ويعني الذات الاخرية في علاقتها المختلفة والمتميزة وغير المختزلة التي تشير طبعا الى الاخر المطلق فهو ليس فقط قرين الانا بل انه ان الذي لست انا وهذا الاخر اللانهائي الذي يهرب مني وحيث سماته الغيرية الراديكالية تفيض بدون انقطاع بمعنى انانية شمولية حيث الانا يغمر كل شيء وحيث الفرد يحترم في سماته كآخر وفي اصلته غير القابلة للاقتسام وهكذا تظهر معاني للعلاقة ما بين الذاتية intersubjectif وفكرة الشمولية تتميز باللانهاية في مايلي :

الاولى : العلاقة ما بين الذاتية : نظرية محضة ترفض الذاتية .

الثانية : الشمولية نظرية اخلاقية قطعاً تتضمن الاولى وهي نقطة البداية للعلاقة الاخلاقية وهي لا تزال متواجدة في الفضاء الميتافيزيقي «الوجه لوجه» بمعنى التقاء الانا بالآخر في نظرة وكلمة تحافظ على المسافة وتفصم كل الشموليات فالعلاقة الاولى والرئيسية هي الالتقاء بالآخر وتفترض علاقة فورية ومباشرة التي هي في ان واحد ضمير للمسافة

والاختلاف وليست ضميرا متناهيا وتجاوزا للآخر معبرا عنها بوجهه حيث يقول ليفيناس « انا مسؤول عن الآخر في ان واحد لا اتحمل المسؤولية اتجاهه، مسؤوليته تقع على عاتقي، انها علاقة تتجاوز ما افعله عادة نحن مسؤولون عما نقوم به، اقول في المسؤولية مبدئيا واحد من اجل الآخر، هذا معناه انا مسؤول على مسؤوليته لهذا فالمسؤولية ليست هبة ذاتية انها بنية بناءة لا هذا ولا ذاك يرجع اليه ولا نعهد الا بالانا المسؤول عن الآخر دون ان انتظر منه مقابلا حتى ان كلفني هذا حياتي، انا مسؤول مسؤولية كلية والانا له مسؤولية اكثر من جميع الاخرين .

ان الآخر حسب ليفيناس ليس الا صورة منسوخة عن الانا هذا الانا يرى فيه الفاعل المسؤول عن المسؤولية التي تجيب عن الاخرين وعند كل الاخرين وحتى في مسؤولياتهم (الاخلاق و اللانهاية) فالسند بالآخر يرتبط فقط مثل المسؤولية الاولى نحن سنكون بهذا الفعل حقا كل واحد مسؤول وغيره من الاخرين كذلك وانه لمن الصعب هنا وصف وجرد المراحل المتعددة الاشواط المسافات والمسيرات من طرف ليفيناس التي اضاعت له الطريق الذي ساقه لصياغة فلسفته الشخصية فهو يعطي للانا صيغة الآخر بنفس الخواص المتعلقة والتابعة له وللاتيقا قانون الفلسفة الاولى بالمعنى المحدد فبالاخلاق يبدي ليفيناس المسؤولية اتجاه الاخرين بشرط ان الانا لا يفر ويهرب ويختفي بل هو سر الوحدة لهذا فيقول ليفيناس: «لا احد يمكنه اخذ مكاني ضمن تدريب هذه المسؤولية» فالآخر هو قبل كل شئ الحوار للتقرب من الاخرين عبر الصورة التي اضعها للرجل الآخر في وجهه فالتعبير عن الاخرين لا يمكن تمثيله في الجسد الانساني بالمعنى الاكثر او الاقل بل في المسؤولية التي يجعلها مركزا لكل فلسفته فمن اجل هذا الآخر ستكون مسؤوليتنا لان الانسان محكوم بمسؤولياته اتجاه هذا الآخر لكي يحقق ذاته لكن لا يهتم بذات تتحمل المسؤولية كاملة بل يفضل تداخل المسؤوليات الانا انت فالواحد حارس لآخيه والواحد مسؤول عن الآخر فيقول ليفيناس: انه لمن المهم ان اكل لكن مهم كذلك ان ياكل غيري « هذه المسؤولية اللانهاية على الآخر يلخصها في مقولة لدوستويفسكي Dostoiivski « نحن مسؤولون عن الكل والكل امام الكل والانا اكثر مسؤولية من الآخر » .

يميز ليفيناس في المسؤولية بين الآخر القريب وهو اليهودي والآخر البعيد وهو اللانهاية غير المشخص «المقدس» ففي نظره الفلسفة تكمن في المسؤولية الموكلة بالحب: حب الآخر

القريب والبعيد معا ، تلك هي حكمة الحب التي ستؤسس لدولة العدالة ، المساواة والقانون ، حيث يؤكد على ان وجود الانا من وجود الاخر اني احيا لان الاخر يحيا كذلك ويشاركني هذا الوجود ومعا نقسم البقاء والوجود معا وجنبا الى جنب في علاقات وثمانيات وتصورات تختلف ولكنها تلتقي في بعض من جزئياتنا لاننا نتشابه الى حد لا يمكن فيه تصور اخر للانسان من الناحية المورفولوجية حيث يقول «ان بين الذات والاخرين مسافات قصيرة جدا تجعل المرور منها ممكنا للتوحد معا لكن عجزنا عن قطع تلك المسافات القصيرة يجعلنا نبكي لاننا لن نكون هناك معا».

يعطي ليفيناس للآخر عدة دلالات منها الغيرية Alterité التي هي مقولة الاخر التي تنشئ وحدة الانا فالانسان عندما يدافع عن حقوقه فانما في الحقيقة يدافع اولا عن حقوق الاخر فبالنسبة للانسان معنى المسؤولية لا يتصل الا مع الغيرية التي هي شرط اساسي لتحقيق انسانية الانسان فالغير اذا كان حاضرا بشكل اصيل لدى مواجهته للانسان فهذا يحقق وحدة تامة وشمولا خالصا لانه معطى عبر تعدد الافراد الذين ليسوا انا والتعدد هو تشتت الاخر تشتتا حتميا ومن هنا ينشأ التحذير ضد غواية الحياة الباطنية : محاينة الانا للانسان ، محاينة الاخرين للانسان انها كلها هزائم وجودية تفضح نقائص الفلسفة التي تؤمن بالقدرات الناجمة عن المحاينة والتي ليست سوى فرارا من فكرة الاخر والغيرية هي التي ستسد هذا الفراغ الميتافيزيقي.

لم يقم ليفيناس الاتيقا النظرية على اساس ديني فقط بل على تجربة الاخر التي تفترض مسؤولية اتجاهه وبعادا للعنف ، فما ان ينظر الاخر الي حتى اكون مسؤولا عنه ، وعلى هذا تنعقد الصلة بالآخر انعقاد مسؤولية عبر علاقة انسانية تعبر عن معنى اللغز السر والمسؤولية التامة. ان الالتقاء بالآخر هو دفعة واحدة مسؤولية اتجاهه حيث يبرر ليفيناس هذا الطرح حين يصرح «ان رؤيتي الاخر هي اضطلاعي بمصيره لان على وجهه نقش الامر القائل لن نقتل ، اني مسؤول عن الاخر ان علي ان اتحمل كل شئ بمعني اني مسؤول عن الاخطاء والماسي التي تحدث لغيري » ان مسؤوليتي هي دائما تفوق مسؤولية الاخر ولا انتظر منه مقابلا لان بهذا الانتظار سافقد كل اخلاقي والاخلاق تكمن في هذا اللاننتظار للمقابل. هذه المسؤولية اللانهائية اتجاه الاخر ستجعل الانا في حالة اعتراف ، تادية ، يقظة ، حذر وجودية دائما وابدا للآخر وسيكون الانا جوهرها اساسيا في الفعل الاتيقي كما يقول ،

كذلك معبرا عن التعالي الديني « انني في الوجه ادرك واسمع كلام الله الحضور الحقيقي لله انني لا اقول ان الاخر هو الله بل اقول انني اسمع في وجهه كلام الله، فادراك الاخر يمثل تجربة اللانهائي.»

يخصص ليفيناس اكثر من محوريين في كتابه الشمول واللانهاية للدلالة على المسؤولية لكل تلك العلاقات التي يمكن ان يعقدها الانا مع الاخر عبر معبر الوجه اذ انك عندما تلتفت الى الوجه لا يجب ان تلتفت اليه وكأنك تنظر الى شئ ما او تنظر الى لون عينيه لان ذلك لن يجعلك في علاقة اجتماعية وانسانية وحتى لا تغيب فكرة المسؤولية ولا تضحك نهائيا بل اننا عندما ننظر الى وجهه ما سنقرأ فيه كل المعاني التي لا يمكن للغة ان تفصح عنها فهو بمثابة خطاب يمكن ان يعبر بشكل دقيق عن المسؤولية وهذه المسؤولية تشكل علاقة اساسية بين الوجه كآخر وبين الانا فالوجه هو الذي يحرم علي قتل الاخر اذ لا يمكن لاي شخص قتل شخص اخر وهو ينظر اليه وجهه لوجه فلا تقتلني «لا تقتل احدا قط» هذه الجملة التي من خلالها يعبر لنا الوجه عن رفضه لكل عملية قتل اتجاه الاخر وهي احدى الوصايا العشر التي حملها موسى الى بني اسرائيل ويعتبرها ليفيناس اول خطاب يمكنه ان يكون محور العلاقة الاتيقية بين اثنين او اكثر وهي امر موجه من قداسة الوجه لان في الوجه هيبة كتلك الرهبة التي يشعر بها العامل امام رب العمل في الوقت الذي يبقى الوجه عاريا امامي يعبر فقره وجوعه وبؤسه عن حالة انسانية وانطولوجية وسياسية واخلاقية .

الوجه وكلام الاخر هو حضور متعذر الانقراض والتبديل يفرض مسؤولية اخلاقية للخروج لان الانا يوجد حقا من اجل الاجابة عن انت الذي يساله وهو يصنع الذاتية الاصلية وحتى عندما نقول انا لي الحق في كوني مسؤول سائل ومجيب وموجود للاجابة عن جميع الاحياء الموجودين وهنا يتجلى مطلب الشمولية واللانهاية فكل لحظة من لحظات حضور الوجه تجعله اما مخلصا او خائنا لذلك فهو حقيقة من اعلى درجة والدليل على ذلك هو ان ليفيناس توصل الى قانون البعد الاخر واثبات الكرم .

والحب نحو الاخرين بواسطة قداسة الوجه حيث يقول «يجب ان نبقي حذرين من اجل فكرة حقوق الانسان والاكثر دقة حقوق الرجل الاخر.»

يؤكد ليفيناس في التعالي الديني ان مع الحب يظهر الوجه الوجه الفريد للغير الذي هوفي العمق وجهي ودون وجود الغير لست سوى قلق امام اللانهائي الذي يتخطاني ويغرقني

انني غريب بالنسبة لنفسني ويأتي الحب ليكسوني بوجه ويفتح مسالك الحوار في المسؤولية ويصبح قيمة اعظم مني لان على وجهه تقرا وثبتي نحو مزيد من الوجود نحو نمط الانا حيث تقول الروائية الانجليزية اميلي برونتي في هذا الصدد «ان كنت احبه فليس ذلك لانه جميل بل لانه ذاتي اكثر مني».

المسؤولية لا تعهد الا بالانا بمعنى علاقة غير متناظرة غير تبادلية انا مسؤول مسؤولية كلية (شمولية) اكثر من جميع الاخرين ومعنى هذا ان شمولية ليفيناس الجديدة هي شمولية لانهائية وبالتالي فلسفة ليفيناس الشمولية اللانهائية تمثل انفصالا عن التقليد الفلسفي الموجود منذ افلاطون الى غاية هيجل والذي كان يتجه دائما نحو تهجين واستبعاد الاخر والاستغناء عن غيريته المختزلة في الوجه اذن في تصور ليفيناس ترفع الاخلاق الى مستوى المطلق الذي ينظم الوجود بصرامة تامة ويشير الى العلاقة مع الاخر الما بين الذاتية بحيث يوجد في الوجه أخلاق نظرية بوصفها لقاء ومسؤولية واذا كان القتل حادثا مبتدلا وي طرح على المناقشة مسؤوليتي الاخلاقية فان مطلب الاخلاق النظرية مطلب متماه مع الوجه فامام الوجه امر الى الاخلاق النظرية والى الله عندئذ تهل هذه الاخلاق من التعالي الثوراتي.

والاتيكا الليفيناسية هي توضيح للعلاقة مع الاخر عبردراسة النفوذ الى الوجه الصادق العادي المجرد من كل دفاع وهو نفوذ اخلاقي، فجلد الوجه هو جلد عاري يعبر عن فقر اسامي ويوضح تعرض صاحبه وتهديده بفعل عنف يواجهه في الوقت عينه تعبير اخر في الوجه هو النهي عن القتل فالوجه هو احياء ولكنه احياء لا اطار له ولا معنى واضح بذاته ويشير ليفيناس الى ان الوجه في العلاقة الاخلاقية لا يرى لان الرؤية تسعى الى امتلاك واحتواء ما نراه من خلال صورة نكونها لان الوجه لا يحتوى ويؤدي بناظره الذي يقاربه الى ما وراء الرؤية والمعرفة الممتلكة والمحققة لتملك وانانية الوجود تفترض ان يخرج الوجه عبرمدلوله و يتحرر من سيطرتها ومنه فالوجه هو مالا نستطيع قتله او على الاقل هو ما يقضي معناه بالنهي عن القتل في عبارة لا تقتل التي يعبر الوجه عنها ، فيقيم اساس العلاقة الاخلاقية عبر امر يوجهه استطيع حياله ان اقوم بما اريد و يتوجب علي حياله كثرة تدفعني الى البحث عن مصادر تمكيني من الاستجابة لنداءه ، و لكن نداء الاخر و نهي وجهه عن القتل لا يجعل الجريمة مستحيلة فعليا كما انه قد لا يدرك شخصا اخر فينهاء هو ايضا عن القتل ، مما يوجب تعميم العلاقة الاخلاقية مع الاخر على جميع الناس عبر واسطة

تساهم في تلطيف هذه العلاقة وهي العدالة la justice التي تتحقق عبر القوانين و التي يجب ان تبقى مراقبة بالعلاقة الشخصية الاولية.

وبعد ان بنى ليفيناس الاخلاق على العلاقة القائمة بالنهي الكامن في وجه الاخر انتهى الى المسؤولية لاجل الاخر و عنه لان نظرتة تجعلني مسؤولا عنه لتسبق المسؤولية اتجاهه و تذهب الى ما وراء ما اقوم به ، و هي في اساسها لاجل الاخر تلزمني به و تميز بذلك العلاقة مع الاخرين و لاجلهم وهي مسؤولية الانا التي تجاوز مسؤولية الاخرين الذين لا يلزمهم الانا بالمسؤولية عنه و لا يفرض التبادل ضمن العلاقة الاخلاقية و تؤدي المسؤولية عن الاخرين و لاجلهم بالانا الى التكفير عن اخطائهم وهي مستمرة دون توقف كما انها تشكل هوية الانا الانساني الذي لا يستطيع رفضها. هكذا اذن يتضح مطلب الشمول و اللانهاية في العلاقة اليتيقية و تفهم المسؤولية و التعالي الديني انطلاقا من هذه التصورات التي حدد من خلالها ليفيناس معالم فلسفة تؤمن بالمسؤولية ، الاخوة ، الضعف ، المسافة ، العراء ، الغرابة ، الاختلاف ، اللانهاية ، التعالي.

ان قيمة الوجه الاخلاقية هي ذات ابعاد سياسية و دينية و يجب التذكير هنا ان الانسانية هي الاطروحة المصاحبة للوجه لانها مسؤولية قبل كل شيء ، فلقد عانى ليفيناس من ويلات الحربين العالميتين و سجن لسنوات عديدة من طرف النازيين الذين قاموا بالاعتداء على عائلته المتواجدة في ليتوانيا بابشع انواع التعذيب و القتل بالذبح ، ولهذا الغرض فان الانسانية الحقيقية هي المسؤولية من اجل الاخر وليست المسؤولية الملية بالانانية المضنية التي سلم بها جان بول سارتر ، و المسؤولية حاملة للانسانية التي نحن محكومون بها لان اخلاق الوجه تحمل الخير ، المحبة ، الطيبة ، الحرية ، السعادة ... كلها دروس نحاول استخلاصها من كتابات ليفيناس في روحانية مطلقة مليئة بالامل و الرجاء ، تلك هي المسؤولية وان كانت الى حد ما مثالية.

ان السند بالآخر يرتبط فقط بالمسؤولية الاولى التي هي الموضوع الذي يجيب عن حضور الاخرين وليست مطلبا هينا بل يعزو كل فرد ياخذ على عاتقه هذا الموضوع ونحن سنكون بهذا الامر مسؤولين وغيرنا كذلك لهذا نجد قلقا يحدونا ويود ان يجعلنا نشك في قيمة الوجود الحقيقي وهذه الفكرة تقترب من فكرة الانسانية عند موريس بلونشو وروبرت انتيلم وهذه الفكرة سنفهم ان الانسان الباحث عن المسؤولية اذا ما حافظ عليها سيحافظ

بالضرورة على وجوده لذلك نجد ليفيناس يربط بين الوجود والمسؤولية شأنه في ذلك شأن غوفمان الذي يرى ان النظر الى الاخر هو بمثابة مشاهدة للوضع في الحياة اليومية للاشياء والافعال وعند سيجالين هو الغرابة العظمى بين الشيء والموضوع اي اختبار للغرابة وعند ناثان هو صحوة الضمير الذي يدفعني نحو الاخر ونحو مسؤوليته وهو عبارة عن الواحد الذي ياخذ شكل ولي امري. وستظل مسألة الاعتراف بالمسؤولية من حيث الاولوية بلا حل بالنسبة الى من يبدأ بموضعة وعي الاخر فالتعاليم الهيجيلية قالت ان الفاعل يتكون في علاقته بالغير وان الطريق من الذات الى الذات يمر عبر الاخر ، فكيف يمكنني قطع المسافة المطلقة التي تفصلني عن وعي الاخر وبالقدر الذي تكون فيه معيوشات الاخر معاشة فعليا بصيغة المتكلم وفي حركاته، تمويهاته تغيراته الصوتية هذه الدلائل الموضوعية التي تستوي على سطح جسده هي جدل بين العزلة والاتصال في نظر هوسرل استفاد منها ليفيناس في فكرة المسؤولية لكن في تصور ليفيناس هل هذه المسؤولية هي فعل قصدي يتضح من خلال فينومينولوجيا الوجه ام هي مطلب وجودي ؟

ان كل ما هو موجود لا يمكنه ان يوجد الا بالنسبة الي ولا يمكنني اجراء اي اختبار فعلي اخر سوى اختبار حضوري الذاتي امام نفسي اذن ربما يعني الاعتراف بالآخر او معرفته خفضه وحصره في مقام شبه الموضوع نظرا لان وجوده لا يمكنه ان يعينني او يطولني الا اذا ظهر الاخر في حقل انتمائي الخاص لان الاخر حسب هوسرل هو مركز EIGENWELT عالم خاص مماثل شكليا لعالمي الخاص فظهور الاخر في فلك انتمائي هو ظهور لامكانية الغيرية والحب الممثل بوصفه عضو الاعتراف الفاضل بالآخر فادراك جسد الاخر كمرجع الى وعي غريب تماما عن فلكي الخاص هو ما اسماه هوسرل بالعالم الخاص بوعي وبالتالي يستنتج ليفيناس ان المسؤولية لا تكفل بالانا الا في وعيه عند هوسرل وهي اشبه ما تكون بالترجسية اي الانانية التي تخل بالمعنى القصدي للمسؤولية وللغيرية .

اما بالنسبة لماكس شيلر يرى انه جرى الهزء من الاطروحة الدهنية التي لا ترى في الاخر سوى مدلول لا يمكن بلوغه قد انقاذ اليه وقد اضطر لاستنتاجه انطلاقا من الدلالات التي قد تكونها تعابير الاخر وحركاته ويدعم شيلر رايه هذا في مثال الولد الذي يعترف فوراً بالمعنى العاطفي لوجه امه بالمدى الطيب او الغضب من خلال الوجه وحركاتها والاختبار المعاش لعلاقة مباشرة مع الاخر العيني المدرك في وحدانيته اي بوصفه قيمة فريدة

او حاملا شخصيا مطلقا للقيم، ويعلق ليفيناس في هذا المقام انه لا يمكن حصر المسؤولية في ايماءات ونظرات قد تكون مرتبطة بعلاقة تبادلية فالمسؤولية حسب ليفيناس لا تكفل هي الاخرى بالانا بل بالآخر دون منفعة او مصلحة او غريزة او عاطفة فهي علاقة ليست تبادلية ولذا نجد ماكس شيلر يقيم تخاطب الانا مع الاخر وكل الحياة الأخلاقية على ما اسماه بالتجاذب SYMPATHIE وهي اسمى صورة للصدقة .

يتساءل كذلك جان بول سارتر في نفس الموضوع: «أليس للآخر اختبار مميز سأكتشفه من خلاله كفاعل اذا كان الآخر غرضه يتحدد بعلاقته مع العالم كشيء يرى ما أراه فلا بد لعلاقتي الأساسية مع الآخر أن ترتد إلى إمكانياتي الدائمة والمطلقة وهي إن يراني الآخر وان انتظر منه مقابلا لان الإنسانية الحقيقية هي المسؤولية عن ذاتي وليس عن الاخر في مقولة الآخرون هم الجحيم .

هذه الأناية المصحح بها علنا من طرف سارتر تجعل ليفيناس ناقما عنها على اعتبار انها تعطي مركزية للحرية وتدعمها بمعنى الحرية الذاتية المطلقة وتقصي الحرية العامة الموضوعية وتحرمها من البقاء فمطلب الحرية هو مطلب مؤسس ومقيد بمطلب المسؤولية حيث ان سارتر يفصح عن كوجيتو وجودي : «أنا حر اذن انا مسؤول ونستطيع بعلاقتنا مع الاخرين ان نصل الى الحرية من خلال ما سماه بالوجود Générosité وهذا المطلب يتنافى مع ما دعى اليه ليفيناس في المسؤولية الشمولية اللانهائية التي تجعل الاخر حاضرا واصيلا ومسؤوليته هي مسؤوليتي فالعلاقة بيني وبينه تختزل في ما يلي :التعالى، اللانهائية، الاختلاف، الغرابة، منع القتل، العراء، المسافة ، الضعف، الاخوة ، بشرط ان تكون غير تبادلية وغير متناظرة .

يطرح ليفيناس مشروعا لبناء المسؤولية من خلال فكرة مسؤولية الرجل الاخر وهو طموح جوهري في الذهنية الغربية التي تضع الانسان مثل جميع الاشياء كشيء علمي يكمل الوجود والمعرفة في شموليته ويعد عمل ليفيناس هذا من المحاولات الاكثر صرامة من اجل الاجابة عن هذا المطلب الذي تنزع اليه الانسانية من خلال مسؤولية الرجل الاخر التي هي مسؤولية مقدسة تتبع كل علاقة بين الانا والآخر عبرالنفود الى الوجه وكذلك من خلال ما اسماه ليفيناس بالحب l'amour الذي يعبر عن فعل ملموس يشمل كل الاخرين بدون استثناء مع استبعاد الحرب والعنف وهنا تظهر انسانية الرجل الاخر ومسؤوليته اللانهائية .

ففي الحب نقرا على وجه الحبيب الكمال الذاتي ويكشف لنا اصالته التي تظهر في الفرح لان سبب هذا الفرح هو انت حيث يقول ليفيناس: «لو قضى جميع الآخرين وبقي هو لبقيت انا مستمرا في وجودي ، اما لو بقي الآخرون وتلاشى هو فان الكون يتحول الى غريب جبار ولن اشعر بانى اشكل جزءا منه...انه دوما حاضر في ذهني ليس كلذة ولكن ككيان انا نفسي...ان تمزقنا الاصيلي بما نحن من كائن ثنائي الجنس يدفعنا للبحث عن الجنس الآخر كي تصبح الثنائية والتعددية الشمولية سر وحدة الواحد».

وهذا التبادل بين الضمائر هو الذي يبلغ مطمح اللانهائي الغريب الجبار الى جزء من ذاتي للشمولية مع الآخرين حيث يصبح حضورا كليا وتظهر النشوة الصوفية حصرية في الضوء الذي يشعه الحب في الوجه فيتجسد في اللانهائي كما يكشف عن اكبر وهم وغرابة للوضع البشري ويجعلنا ندرك الآخر في ذاتيته الحميمية.

نلتمس في لب مسعى ليفيناس نحو اقامة مشروعه حول المسؤولية اللانهائية نقذا جذريا لفكرة الشمولية الهيكلية التي يختزلها في الروح المطلق ويدعونا لقراءة شمولية حيث الضمير لادراك العالم وفتح مجال لا شيء اخر لتتحول الى فكرة مطلقة فالضمير الشخصي هو في ان واحد ضمير الكل (الشمول) وبذلك يثبت ليفيناس انه المفكر الوحيد في الاتيqa الاكثر اهمية والاكثر شهرة باعماله التي تتوزع عموما بين السياسة والاخلاق والدين وتهدف الى توضيح العلاقة مع الآخر وفهم الشروط التي تحكم العلاقة المابين الذاتية الانا ، انت ، الآخر في المسؤولية فالطموح الى الشمولية هو مثل المرض مثل انحراف الضمير الذي يظن انه لا يتعلم شيئا من الخارج والذي هو في الواقع يخشى الآخر ويرغب تجنب الالام الخارجية التي يراها كخطر محقق لانها تضع الشخص موضع تساءل وغرابة وغموض بالفرد لا يحترم في سماته كآخر وهكذا تظهر اسباب التخلي والهجران ولذلك يجب اجراء وثبة نحو تقرب الهوة بين العلاقة المابين الذاتية من خلال المسؤولية المحكومة بالتعالى الديني حيث ان كل شيء يدفعنا بعفوية الى تبني مسؤولية الآخرين وهو وعي للمسافة والاختلاف لان وعي اللانهائي وتعاليه يفسح المجال امامي لكي لا اخطئ لان الاخطاء والماسي هي من الماضي ويفتح لي الشهية للرغبة في اللانهائي والامتناع عن القتل ، فالآخر يخول لي المسؤولية في الوقت الذي ينظر الي ، اتحملة ، اتحمل ضعفه ، هشاشته ، العلاقة التي تربطها معا هي واحدة والتي تكون الفعل الاصيلي للاخوة ويعهد لي حريتي.

الوجه هو ما يكون اكثر عراءا في الاخر وعن طريق العراء يمكن فهم المسؤولية وهذا العراء للوجه يطرح مدلولين : مدلول ديني يمنعي من اي فعل منافي للانسانية من خلال ما يلي : انني لا اقول ان الاخر هو المقدس بل انني ارى في وجهه كلام المقدس وهو يقول لي لا تقتل .

اما المدلول الثاني هو ان الوجه العاري لا يكون واضحا ومحددا الا في العلاقة التي هي صورة الاخر ، فحضور الاخر يدل على حقيقته نفسها وفي هذا الاطار يجب فهم الاخر على انه اخر مطلق وغيريته تتجلى في وحدته انه اخر لانه واحد وغير مقارن وغير مقسم وعراء وجهه هو بالتأكيد عراء الى اقصى الحدود ياتي ليعبر اصليا عن الانا بطريقة مباشرة ومواجهة بدون قناع او تزييف وانه لمن الضروري ان يكون هناك كائن من اجل مقابلته وجهها لوجه لتفادي العزلة ، ورؤية الاخر في عيونه تستلزم استدعاء وتقارب، هذا الاستدعاء دعوة لعدم التبرك والهجران وعراءه كذلك هو وعي للعلاقة المسؤولة وبالتالي تنبيه لفيناس لعراء الوجه هو في حقيقة الامر ميلاد لمسؤولية الرجل الاخر. ندرك اذن ان الاتيقا النظرية انما تنهل من التعالي الثوراتي ادراك الاخر فالاتيقا النظرية تمر عبر تجربة اللانهائي التي تكشف عن المسؤولية المنقوشة في وجه اللانهائي الذي يفرض علي منع العنف ومنع القتل.

لقد اعطي لفيناس فلسفة للمسؤولية خاصة بالموجود الذي حدده بكونه وجودا لا شخصا غير قابل للنفي وهو ليس كائنا ولا عدما كما انه يتميز بالانانية الساعية الى الاستمرار في الوجود عبر استغلال الاخر وعبر ارجاع كلية الاشياء الى الذات، وانانية الوجود هذه هي انانية مضيئة التجربة وفارضة لنفسها فرضا يجعل الفرار من الوجود مستحيلا على غير الموجودات التي نصفها بالوجود الذي نربطه بها مؤيدين الى سيطرتها عليه وهي موجودات يسيطر عليها الانا عبر امتلاكه لها، وتشكل سيطرة الموجودات على الوجود مرحلة اولى تليها مرحلة اخرى هي خلع الانا للوجود عن ملكيته وسيادته بواسطة العلاقة الاجتماعية مع الاخر وهي علاقة متجردة ونزيمية ومسؤولية لاجل الاخر في مسؤولية تحقق تكامل الخروج والتحرر من الوجود الاناني الفارض لنفسه وتؤكد بذلك اولوية علم الموجود الذي ياخذ على عاتقه المسؤولية والتي اوجب ليفيناس على الميتافيزيقا ان تلتزم بها بدلا من الانطولوجيا.

يرى ليفيناس ان المسؤولية لا يجب ان نفهمها بالمعنى القانوني :

انا مسؤول عن افعالي ولكن بالمعنى الايتيقي انا مسؤول عن الاخر بدون ان انتظر منه مسؤوليته عني ، وهذه المسؤولية غير محدودة تتجاوز حدود العقل ولهذا نجد ليفيناس يقتبس هذه الفكرة من الكتاب المقدس التلموذ (بابليون) :« ان لم اجب عن نفسي من يجيب مكاني ؟ ولكن ان لم اجب الا على نفسي ساظل الا انا .» مع العلم ان الانا في نظر ليفيناس هو في ان واحد انا ، انت الاخر .

يتحدث ليفيناس عن المسؤولية وكانها اسيرة ورهينة الانا في العلاقة الايتيقية بكونها لا تنتهي ابدًا وليست اختيارية بل فرضية والزامية حيث يفند هذا الخطاب في مقولته :« انا دائما في خدمة الاخر ومسؤول عنه بحيث لا تنتهي مهمتي .. فالمسؤولية هي مسؤولية الانا الذي ليس ضميرا فرديا واحدا بل يحتمل التعدد والاختلاف وهذا الضمير يشعر بان خطاها ما يامر به هذا الفعل الايتيقي وفي هذا يستعير ليفيناس بمقولة لـ jehuda.lalévy وهي مقولة مقدسة :« يتحدث الاله الى كل شخص بشكل معين » ، وتضيف كذلك في نفس الموضوع :« كل فرد مسؤول ومدعو للخروج من اجل القيام بدوره او بدون انتظار دوره في فعل المسؤولية وللإجابة عنها وهذا معناه مسؤولية من اجل الاخر واذا ما فقدتها جديرا فانه سيفقد مكانه ومستقره في الانا »

ان هذا الخطاب الصريح يؤكد ان العلاقة المابين الذاتية هي علاقة غير متناظرة معناه انا مسؤول عن الاخرين دون ان يبادلونني نفس الشعور ونفس الفعل. فالمسؤولية تجيبنا عن الكل وفي الكل يقصد بهذه العبارة ليفيناس ان الاتيقا في مضمونها الشمولي هي اتيقا الجوار في علاقات قصيرة مباشرة وبدون وسائط. فالفعل الاصلي الذي يراه مقدسا في المسؤولية هو الاخوة التي يعطيها بعدا سياسيا واخلاقيا بحيث نجده يعود الى فكرة العقد الاجتماعي عند جان جاك روسو ويجعل منها ليفيناس مماثلة للعلاقة الايتيقية. فالفرد في العقد ملزم بالحد من بعض حرياته وحقوقه لصالح الاخر في مقابل حصوله على الامن والاستقرار ويضمن شرعيته والمساواة والعدالة والسلام ، فالاخوة الحقيقية هي الاخوة التي تجعل الاخر يهمني مهما كان اجنبيا فهو اخي ففي جوارى الاخر المطلق والاجنبي للذين لا اعرفهما ولم اصادقهما في طفولتي علي ان احضنهما كما جاء في الكتاب المقدس :« يحضن الاجنبي والاخر المطلق كما يحضن المرابي الرضيع » وبهذا المعنى والتجلي لا يمكن ان تكون المسؤولية مقصاة ومحدودة فهي معنية بكل شخص بدون استثناء.

الإطار البيوغرافي للفيلسوف ايمانويل ليفيناس

12 جانفي 1906 : ميلاد ايمانويل ليفيناس في كوناس بليتوانيا. من عائلة محافظة على التقاليد تتكلم الروسية أبوه صاحب مكتبة وراقعة، وأم وأخوين ، قرأ ليفيناس الكتاب المقدس وعمره لا يتجاوز سن السادسة.

1920 / 1927: عودة العائلة الى ليتوانيا بعدما أصبحت دولة مستقلة اين سيحضر ليفيناس شهادة البكالوريا، ذهابه إلى ستراسبورغ بـ«فرنسا» ليسجل في معهد الفلسفة ، ويلتقي بأستاذه:«شارل بلونديل ، موريس برادين» ، وسيربط علاقة حميمة مع موريس بلونشو واصدار كتابه «حول موريس بلونشو».

1928 / 1930 : يقضي مدة سداسين لدراسة الفلسفة بفريبورغ في ألمانيا ويكتشف الفينومينولوجيا على يد أستاذه ايدموند هوسرل ويقوم بإدخالها إلى فرنسا ، كما كان وفيما لأستاذه الثاني «مارتن هيدجر».

و يترجم ليفيناس كتاب تاملات ديكرتية لهوسرل، ثم يقدم رسالته في الدكتوراه من الدرجة الثالثة حول:«نظرية الحدس في فينومينولوجيا هوسرل» التي نشرت بعد عام وتوجت من طرف معهد العلوم الأخلاقية والسياسية.

1961 / 1968: يطرح رسالته في الدكتوراه تحت عنوان:«الشمول واللانهاية» التي تمثل أكبر وأشهر كتبه، ثم يعين أستاذ في جامعة بواتي poitiers وظهور كتابه «الحرية الصعبة» ثم أستاذ في جامعة نانثير Nanterre وينشر أربع مطالعات تلمودية.

1973 / 1988: سيعين أستاذ بدرجة البروفيسور في جامعة السربون «Sorbonne» ظهور كتابه ماراء الماهية وصدور أعماله المتتالية : من المقدس إلى القديس وخمسة مطالعات تلمودية جديدة ، الله الذي يأتي كفكرة و الأخلاق واللانهاية (حوار شيق بين ليفيناس وفليب نيمو). ، التعالي والفهم، زمن الأمم .

25 ديسمبر 1996: في اليوم الثامن من هانوكا عيد اليهود « jour de Noël » وفاة ايمانويل ليفيناس.

قائمة المراجع:

- 1- جاكين روس، الفكر الأخلاقي المعاصر، ترجمة عادل العوا، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 2001، ص 64، 65.
- 2- ادوارد موروسير، الفكر الفرنسي المعاصر، ترجمة عادل العوا، منشورات عويدات، بيروت، باريس، الطبعة الثانية 1994، ص 171.
- 3- سارة كوفمان. روجي لابورت، مدخل إلى فلسفة جاك دريدا، ترجمة إدريس كثير، عز الدين الخطابي، إفريقيا الشرق، الطبعة الثانية 1994، ص 29.
- 4- مجلة الفكر العربي المعاصر، الأنا، الذات، الآخر، ملف من فضيحة المأوية في الغرب، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، ص 103.
- 5- موسوعة أعلام الفلسفة العرب و الأجانب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1992، الجزء الثاني، ص 408.
- 6- Atlas de la philosophie ,encyclopédies d'aujourd'hui par Peter kunzmann ,franz peter burkard et franz wiedman,traduction française de zoé housez et Stéphane robillard,p238 ,239.
- 7 - Emmanuel.Lévinas,le temps et l'autre ,p.u.f,paris,france1991,p50,52,53.
- 8- Emmanuel.Lévinas,éthique et infini, fayard, culture, france1982,p79.
- 9- Magazine Littéraire,émmanuel. Lévinas,le mois bouquins, avril 2003,p 44.
- 10- Francois.David.Sebbah,lévinas,ambiguités de l'altérité,les belles lettres,novembre2000,-société d'édition :figures de savoir,collection dirigée par richard zrehen,paris,France,p06
- 11- Francois.David.Sebbah,lévinas,ambiguités de l'altérité,les belles lettres,novembre2000,-société d'édition :figures de savoir,collection dirigée par richard zrehen,traduction du deuxième chapitre :le visage,l'éthique,p34...40.